ورفعته أنا بالرغيف ، من الحضيض الى العلاء »(٢) .

حادث اختلاس في مركز توزيع وكالة غوث اللاجئين يدان فيه « وصفي » ويطلب من صديقه وزميله المثول امام المحقق ، ولكنه لا يستطيع ان يدلي بأية معلومات عن زميله رغم علمه بها « فصداقتهما صداقة رصاص ودم . . جوع وتشرد . انه ليس نذلا . . وليس لصا . . ولكن » . والاجابة الوحيدة التي تفوه بها امام المحقق هي : « انني اعرف وصفي مذ كان طفلا ، زاملته تلميذا وموظفا ، وليس سهلا علي أن اتصور ان ينحط الى هذا الدرك » . ويجيء التعليق القاسي على لسان الرجل الاجنبي : « في مثل ظروفكم يا صاحبي لا يدري المرء في أية لحظة يمكن أن يصبح لصا . . » وتكون هذه المقولة بداية للقصة كلها ، يقوم الصديق الى قوائم التوزيع المنتظرة على مكتبه فيمزقها ويلقي بها في سلة المهملات . . ويمسك قلما وورقة بيضاء ، يسطر عليها ثلاث حكايات : « فياض الحاج علي » المزارع الطيب الذي كانت مواسم بلاده خضراء دائما « فسماؤنا سخية ، وتربتنا سمحاء ، ولم تكن سواعدنا بالمتخاذلة الرخوة » . ولكن ظروف اللجوء الذليل ، وأفواه الزوجة والاطفال الخمسة المطالبة قلبت حياته راسا على عقب ، ولما جاءت زوجته الى مكتب التوزيع تطالب بتسليم الاعاشة لها ، لا له ، لانه يبيعها ويسكر بثمنها ، أخذ يكيل لها الكلمات والركلات دون وعي حتى فارقت الحياة في الطريق الى المستشفى . وغدا فياض مجرما وقضي عليه بالاشغال الشاقة خمسة عشر عاما ! وأخت الشهيد أحمد ، مدربهم في الحرس ، تصبح بغيا بعد موت امها « اذ لم يبق أمامها الا هذا الطريق »! . وأبو سليم جاسوس المخيم الذي يسجل على اللاجئين تحركاتهم ويقف في طريق بناء مدرسة جديدة في المخيم ، في حين يشتري هو جهاز تلفزيون ويفرض رسم دخول على من يريد الفرجة من اخوانه اللاجئين « كل هذه صور من آثار النكبة على الفرد الفلسطيني ، شوهته وأذلته وغلفت حياته بالخزي والعار » . ولذلك لم يكن غريبا ان يذهب الراوي فور انتهائه من كتابة هذه الحكايات وقد بيت في نفسه امرا « القضاء على مصدر الذل نفسه — مكتب التوزيع — وعندما تلتهم النار اكياس الفول والدقيق وكتل الدهن واكوام التمر والزبيب ، يشعر بزهو غريب ، فكل الناس سيعرفون » كل اللاجئين ، كل من في الوكالة ، وسيعرف المحقق بالذات ، انه شيء اكبر من لص ، وارفع من وغد ، وان قومه لن يلعنوه اذا جاءوا . . فما حرق قوتهم ، وما سلك ناره على غنائم اللصوص والفئران الا لانه . . « لانه يحبهم » ! .

صورة اخرى من صور الذل والهوان اللذين مر بهما « الفلسطيني » خاصة أول الهجرة ، تسجلها الكاتبة في القصة التي تحمل ذلك الاسم ، فقد أصبح « الفلسطيني » البقال كالارمني الاسكافي الذي لم يعرف له اسم على مدى ثلاثين عاما في الحي ، هذا مع ان مصائب الفلسطينيين اصبحت فوائد لدى بعض الانتهازيين من أهل البلاد الذين تعاملوا بتزوير بطاقات الجنسية وابتزاز اموال الفلسطينيين الكادحين .

لا شك ان سميرة كانت متعاطفة مع ابطال قصصها من الفلسطينيين ، الذين عرفت حياتهم عن قرب ، وزارتهم كثيرا في المخيمات وفي المدارس وفي معسكرات التدريب . وكانت هي نفسها تأخذ على الكتاب والشعراء العرب الذين تحدثوا عن اللاجئين عدم زيارتهم لمخيماتهم ومعرفتهم كيفية معيشتهم وما يتعرضون له ، وتطلب من الاديب ان ينظر الى القضية الفلسطينية كقضية معايشة يومية ، وتضيف : « ان تجاوبه يجب أن يتم أبدا على نطاق الاحساس الشامل لا بمشكلة فلسطين فحسب — وان قدمت في نظرنا على غيرها من المشكلات — وانما بجميع قضايا التحرر في العالم »(٣) .

---

٢ — مجلة **الآداب** ، عدد فبراير ١٩٦١ ، ص ١٨ .

٣ — مجلة **الآداب** ، عدد مارس ١٩٦٥ ، مقالة لسميرة عزام بعنوان : « دور الادب في معركة فلسطين » .